المحاضرة الرابعة في مقياس علم الإجرام

النّظريات المفسّرة للسّلوك الإجرامي

مادام علم الإجرام هو ذلك العلم الذّي يبحث في تفسير الظّاهرة الإجرامية، فقد تعدّدت الأبحاث واختلفت الدّراسات المفسّرة للظّاهرة الإجرامية، فالتساؤل عن الدّوافع والأسباب التّي تدفع المجرم لارتكاب جريمته هي التّي أدّت إلى انبثاق الكثير من النّظريات المفسّرة للسلوك الإجرامي والمحدّدة للأسباب والعوامل التّي تودي بالشّخص إلى عالم الإجرام والانحراف، من طرف المختصّين والعلماء في ميادين علم النّفس والاجتماع والانثروبولوجيا والطّب وغيرهم ومن أهم هذه النّظريات نجد النظرية البيولوجية، النظرية النّفسية، النظرية الاجتماعية:

أولا :النظرية البيولوجية(العضوية)

يعتقد أنصار هذا المذهب أن هناك علاقة بين السلوك الإجرامي وتكوين جسم الإنسان، وكان رائدهم الطبيب الإيطالي **سيزار لامبروزو** ،والذي نادى خلال دراسته الأولى بنظرية المجرم بالولادة، ثم ما لبث أن عدّل موقفه في أعماله المتأخرة مقرا بأن الإجرام لا يورث في حد ذاته بل يورّث استعدادا كامنا له تحركه البيئة الفاسدة، ولقد أضاف أتباعه مثل : "أنريكو فيري"،" رفائيل جاروفالو" عوامل اجتماعية أخرى في تحليلاتهم للإجرام. وقد أكد الطبيب **لامبروزو** رائد علم الإجرام الحديث على أهمية الأسباب البيولوجية وارتباطها بالجريمة ووضع تصورا استمر لسنوات طويلة ويشمل هذا التصور بعض الاعتقادات التي صاغها:

أ–ترث نسبة من المجرمين نمطا ولاديا إجراميا : فالمجرمون أقل ارتقاء ونموا من غير المجرمين، ولديهم قصور في الجوانب الجسمية، واعتمد في تفسيره على أوجه الشبه بين المجرمين والإنسان البدائي والمرضى العقليين ومرضى الصرع.

ب–إنّ المجرمين يمكن تمييزهم عن غيرهم من الأشخاص على أساس مختلف جوانب الفروقات التشريحية : مثل صغر حجم الجمجمة، كبر الأذنين، ضخامة الفكين، بروز عظام الخدين، ضيق الجبهة وانحدارها وهي ما تميز النّمط الإجرامي.

ج–ليست هذه السّمات المختلفة هي سبب الجريمة في ذاتها ولكنها تكشف الشخصية التي لديها الاستعداد الإجرامي.

د–أن المرأة ليس لديها استعدادا أوليا لخرق القانون وارتكاب الجرائم وبالتالي فان الجرائم التي تقوم بها النساء تمثل انحرافا عن فطرتها.

هـ–لا يستطيع الفرد الذي ينتمي الى النمط الإجرامي أن يفلت من ارتكاب الجريمة أو السلوك الجانح إلّا إذا تهيّأت له الفرصة ليعيش في ظروف خاصة مواتية. لقد كان للمدرسة العضوية نفوذا كبيرا في أواخر القرن 19 م خاصة في أوربا، إلاّ أن الاتجاه السائد في القرن 20م، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية ،قلل من شأن المذهب العضوي ومال بشكل ملموس إلى الاعتقاد في المدرستين النفسية والاجتماعية.

ثانيا :النظرية النفسية

يعتقد أصحاب هذه المدرسة أن شخصية الفرد لا تتأثر كثيرا بالوراثة أو التكوين الجسماني، بل تتأثر إلى حد كبير بالعوامل النفسية كمحصلة للخبرات المختلفة التي يتعرض لها الإنسان ومن النظريات النفسية:

1–التحليل النفسي (**فرويد:**)

حيث يرى أن السلوك الاجرامي يتكون نتيجة لخبرات الانسان في مرحلة الطفولة المبكرة ويعتبر انعكاسا للعلاقات الخاصة والتصرفات المتبادلة بين أفراد الأسرة، إذ تبقى رواسب هذه الحوادث عالقة بشخصية الفرد وتصبح دوافعها تتحكم لا شعوريا في سلوكه وتصرفاته، فإذا كانت حياته قاسية فان ذلك قد ينعكس على حياته المستقبلية مؤديا إلى انحرافه وارتكاب الجريمة.

2-**ألفريد ادلر** : و يرى هذا الأخير أن شعور الإنسان بالنقص هو المصدر الأول لكل نشاط إنساني وأن غاية كل إنسان هي السيطرة والتفوق، والجريمة في نظره شأنها شأن المرض النفسي، تأتي نتيجة الصراع بين غريزة الذات (حب التفوق)وبين الشعور الاجتماعي. وقد لاقت العوامل النفسية للجريمة اهتماما ملحوظا في العصر الحديث، غير أن بعض أنصارها بالغوا في انحيازهم لها بدرجة قد تقلل من شأن الأثر الهام للعوامل الاجتماعية، فالاستجابة بين الأفراد الخاضعين لنفس العوامل النفسية مثل الشقيقين اللذان ينشآن في أحضان أسرة واحدة وتلقيا نفس المعاملة وكانا محاطان بنفس العوامل النفسية وإذا بأحدهما يسلك السبيل السوي، و الآخر يسلك طريق الجريمة.

ثالثا :النظريات الاجتماعية

قام أنصار هذه النظريات بعدة دراسات بينت لهم صلة السلوك الاجرامي ببعض العوامل الاجتماعية كالفقر، تفكك الأسرة،صحبة الأشرار، وبالرغم من إجماعهم على أهمية البيئة الاجتماعية في التأثير على السلوك فقد اختلفوا في مدى أهمية هذه العوامل.

-وفي عرض لعالم الاجتماع الفرنسي **جبريل تارد**ان قال أن الإنسان لا يولد مجرما، بل يتأثر بتصرفات الآخرين و يرتكب الجريمة بإيحاء منهم وتقليدا لهم، و أن أنماط تعلم الجريمة تماثل إلى حد كبير أنماط التعلم في أي مهن أخرى(نظرية المحاكاة و الإيحاء.)

-وجد العالم الهولندي" **ويليام بونجر**" أن لبعض العوامل الاقتصادية أثرا سيئا على الأخلاق (الفقر، البطالة، أزمة السكن) تعتبر دوافع تساهم في الانحراف خاصة لدى الأحداث. ولعل أبرز المدافعين عن الفكرة الاجتماعية" **ادوين سندرلند**" صاحب نظرية المخالطة الفارقة (السلوك الإجرامي يكتسب بالتعلم الذي يتم عن طريق مخالطة الآخرين و التعامل معهم، حيث يحدث التوجه نحو السلوك الإجرامي إذا رجحت كفة المفاهيم المجندة لانتهاك القانون على كفة المفاهيم المجندة للسلوك الذي يقره المجتمع.)

إن المخالطة التي يقصدها **سندرلند** تتراوح في درجتها وفقا لأربع أسس (تكرارها، دوامها، أفضليتها، عمقها.)

من أهم الانتقادات التي وجهت لهذه النظرية:

-عجزها عن تفسير تفاوت الاستجابة بين شخص وآخر من المخالفين للعناصر الإجرامية.

-عجزها عن تفسير جرائم الصدفة.

-أغفلت تغيير تأثير البيئة مع اختلاف التكوين الفردي للأشخاص الذين يعيشون فيها.

نالت العوامل الاجتماعية قسطا وفيرا من اهتمام الباحثين في سببية الجريمة في غرب أوربا والولايات المتحدة الأمريكية خلال العصر الحديث رغم ما يؤخذ عليها من استهانة بالمكونات الفردية (مزاجية، عضوية، غريزية) في تفسير السلوك الإجرامي.